الكتابة عن السجن أفقا لإثبات الهوية وتمردا على مصادرة الإنسانية

Writing about prison as a horizon for affirming identity and a rebellion against the confiscation of humanity

أ. **عمر ازازن:** طالب باحث بسلك الدكتوراه بكلية اللغات والفنون بالقنيطرة، المغرب.

د. ربيعة بنويس: أستاذ التعليم العالي، كلية اللغات والفنون والآداب، جامعة ابن طفيل – القنيطرة، المغرب.

Mr. Omar Izazne: *PhD research student at the Faculty of Languages and Arts in Kenitra, Morocco.*

Email: omarizazen@gmail.com

Dr. Rabia Bennouis*: Instructor of Higher Education, Faculty of Languages, Arts and Humanities, Ibn Tofail University – Kenitra, Morocco*

Email: rabia.bennouis@uit.ac.ma

Doi: https://doi.org/10.56989/z8h35674

تاريخ الاستلام: 2026-03-01 تاريخ القبول: 2026-03-10 تاريخ النشر 2026-04-01

الملخص:

تُعدّ الكتابة عن تجربة السجن شكلاً من أشكال مقاومة الظلم الإنساني، ومواجهةً لانتهاك الكرامة، ودفاعاً عن الحرية، كما تمثل تمرداً على كل ما يسعى إلى إلغاء الذات الإنسانية وإذلالها. ومن هذا المنطلق، يغدو السجن، رغم قتامته ومأسويته، فضاءً خصباً أفرز العديد من الأعمال الإبداعية المشحونة بالدلالات الإنسانية والاجتماعية، على اختلاف توجهات كُتّابها السياسية والإيديولوجية. وينطلق هذا البحث من جملة من التساؤلات، من أبرزها: ما جدوى الكتابة عن تجربة السجن؟ وكيف تتشكل الرؤية والدافع إلى الكتابة داخل فضاءٍ يقيد الذات المبدعة ويقوض كرامتها؟ كما يسعى إلى بحث مسألة صدقية الكاتب السجين، ومدى التزامه بالحقيقة عند إعادة بناء يوميات التعذيب والتنكيل، إضافةً إلى تقويم مدى فاعلية هذه الكتابات في تثبيت هوية أصحابها في مواجهة سلطة القمع، وتحريرهم من ثقل الماضي المظلم. وقد خلص البحث إلى عدد من النتائج، أهمها أن المعتقلين أسهموا في توثيق تجاربهم وتجارب غيرهم، فصاغوا نصوصاً إبداعية ارتقت فوق الألم ورتابة الانتظار داخل فضاءٍ يطغى عليه القيد والاغتراب الإنساني، كما تحولت الكتابة إلى وسيلةٍ لسرد المعاناة والقهر، وإبراز صمود الإنسان في مواجهة عنف السجان، لتغدو بذلك فعلاً مقاوماً يتيح للكاتب تفريغ معاناته والتطهر من آثار التجربة القاسية.

الكلمات المفتاحية: الكتابة السجنية، الهوية، الذاكرة، التخييل، المقاومة، القمع، الإنسانية

Abstract:

Writing about the prison experience is considered a form of resistance to human injustice, a confrontation with violations of dignity, and a defense of freedom. It also represents a rebellion against all that seeks to erase and humiliate the human self. From this perspective, prison—despite its darkness and tragedy—becomes a fertile space that has generated numerous creative works imbued with human and social significance, regardless of the political and ideological orientations of their authors.

This study is grounded in a set of key questions, most notably: What is the significance of writing about the prison experience? How are vision and motivation for writing shaped within a space that constrains the creative self and undermines its dignity? It also seeks to examine the issue of the imprisoned writer's credibility and the extent of their commitment to truth when reconstructing the daily realities of torture and abuse. In addition, it evaluates the effectiveness of such writings in affirming the authors' identities in the face of oppressive authority and in liberating them from the burden of a dark past.

The study concludes with several findings, most notably that prisoners have contributed to documenting their own experiences as well as those of others, producing creative texts that rise above pain and the monotony of waiting within a space dominated by confinement and human alienation. Writing thus becomes a means of narrating suffering and oppression, while highlighting human resilience in the face of the jailer's violence. In this way, it transforms into an act of resistance that enables the writer to release their suffering and come to terms with the effects of a harsh experience.

Keywords: prison writing, identity, memory, imagination, resistance, oppression, humanity

المقدمة:

لا غرو أن كل كتابة هي فعل تأسيسي للحظة إنسانية متجددة، غير أن الكتابة عن تجربة السجن ترتقي بهذه اللحظة إلى أفق أكثر عمقًا وخلودًا، إذ تتحول إلى شهادة حية على قسوة العالم وانتهاكاته. فالكتابة في هذا السياق ليست مجرد فعل سردي، بل هي فعل تحرر ومقاومة، تأشيرة رمزية نحو استعادة الحرية المسلوبة، ووسيلة لإثبات الذات في وجه محاولات الطمس والمحو. من خلالها ينحاز الكاتب المعتقل إلى إعادة بناء هويته المتصدعة، عبر تطهير داخلي يخفف من وطأة الألم، ويمنح المعاناة بعدًا إنسانيًا قابلاً للتواصل.

كما تشكّل الكتابة السجنية فضاءً تتقاطع فيه الأصوات واللغات والتجارب، حيث يعيد السجين تشكيل عالمه الخاص داخل النص، مستحضرًا زمنًا مضى وانقضى واقعه، لكنه ما يزال حاضرًا بثقله في الذاكرة والجسد. وهكذا تغدو الكتابة فعلًا مزدوجًا: استعادة للزمن الضائع، وتمردًا على واقع يسعى إلى سلب الإنسان إنسانيته.

وانطلاقًا من ذلك، تسعى هذه الدراسة إلى مقاربة الكتابة السجنية بوصفها أفقًا لإثبات الهوية، وآلية لمقاومة التلاشي داخل فضاء القمع، حيث تتحول إلى جدار صلب في وجه اليأس والتواطؤ مع النسيان. كما تتوقف عند إشكالية الحقيقة في هذا النوع من الكتابة، متسائلة عن مدى صدقيتها، خاصة في ظل الفاصل الزمني بين تجربة السجن ولحظة تدوينها، وما يترتب عن ذلك من انتقائية في الذاكرة أو إعادة تشكيل الوقائع وفق منظور لاحق.

مشكلة الدراسة:

نظرًا لندرة الكتابات الأدبية التي تتناول تجربة السجن، ومحدودية المقاربات النقدية التي غالبًا ما جاءت مقتضبة أو سطحية، برزت الحاجة إلى دراسة أعمق تستكشف الأبعاد الجمالية والإنسانية لهذا اللون من الكتابة. ومن هذا المنطلق، تسعى هذه الدراسة إلى ملامسة جملة من الإشكالات الجوهرية، من بينها: طبيعة العلاقة بين الكتابة السجنية والمتخيل، ومدى ارتباطها بآليات الذاكرة، وحدود التداخل بين الواقع والتخييل.

كما تطرح الدراسة تساؤلات حول دوافع الكُتّاب السجناء: هل يكتبون بدافع الشهادة والتوثيق؟ أم بحثًا عن المصالحة مع الذات؟ أم باعتبار الكتابة فعل اعتراف يحررهم من عبء التجربة؟ وبذلك تحاول هذه الدراسة تفكيك هذه الكتابات بوصفها نصوصًا تتأرجح بين البوح والتمثيل، بين الحقيقة وإعادة بنائها سرديًا.

منهج الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة على المنهج القائم على المقاربة النفسية–الاجتماعية (السيكوسوسيولوجية)، لما يتيحه من إمكانات في سبر أغوار الشخصية السجينة، والكشف عن بنياتها الداخلية، وتحليل تمثلاتها لذاتها وللعالم. كما يسهم هذا المنهج في ربط التجربة الفردية بالسياقات الاجتماعية والسياسية التي أنتجتها، وفهم الدوافع العميقة التي وجّهت مواقف السجين، سواء على مستوى السلوك أو على مستوى التعبير الكتابي.

وبذلك تسعى الدراسة إلى تقديم قراءة تكاملية تزاوج بين البعد النفسي والبعد الاجتماعي، من أجل فهم أعمق للكتابة السجنية باعتبارها فعلًا إنسانيًا مركبًا، يجمع بين الألم والإبداع، وبين القمع والتمرد.

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية هذه الدراسة من كونها تسلط الضوء على الكتابة السجنية بوصفها خطابًا إنسانيًا مقاومًا، يكشف عن أبعاد عميقة لتجربة القهر ومصادرة الحرية. فهي تساهم في إبراز دور الكتابة كوسيلة لإثبات الهوية في مواجهة محاولات الإلغاء، وكأداة للتمرد على الأنظمة التي تسعى إلى تفكيك الذات الإنسانية.

كما تكتسب الدراسة أهميتها من ندرة الأبحاث التي تناولت هذا الحقل بشكل معمق، مما يجعلها إضافة نوعية إلى الدراسات الأدبية والنقدية، خاصة في تقاطعها مع علم النفس والاجتماع. إضافة إلى ذلك، تساعد الدراسة على فهم آليات اشتغال الذاكرة داخل النص السجني، وكيفية إعادة بناء التجربة من خلال السرد، مما يفتح آفاقًا جديدة لتحليل العلاقة بين الحقيقة والتخييل.

ولا تقل أهمية الدراسة في بعدها الإنساني، إذ تسهم في نقل صوت السجناء ومعاناتهم إلى الفضاء العام، وتدعو إلى إعادة التفكير في قضايا الحرية والكرامة والعدالة.

أولاً: الكتابة السجنية: بحث في دلالة المصطلح

تُعدّ الكتابة السجنية من أبرز الأشكال التعبيرية التي تجسد عمق المعاناة الإنسانية، إذ تنقل الهموم النفسية والذاتية، وتعكس الحالات الشعورية في أقسى صورها وأكثرها مرارة وإيلامًا. ولا غرابة في ذلك، فالسجين—على الرغم من ظروفه القاسية—يظل إنسانًا يمتلك أدواته الخاصة ورؤاه التي يسعى إلى تحقيقها، لتغدو الكتابة في هذا السياق فعلًا نضاليًا وأداة من أدوات الصمود والمقاومة. إنها تجسيد حيّ لاستبسال الإنسان الأعزل إلا من قناعاته، في مواجهة آلة القمع وأساليب البطش، حيث تتجلى ملامح الصراع الحاد بين الجلاد والمناضل، بين السياط والعقيدة،

بين محاولات الإذلال والتركيع وإرادة التصدي والثبات، وبين الفرد الأعزل والسلطة المتجبرة (حمدونة، 2018، ص165).

وعلى الرغم من ضراوة المنظومة القمعية وسطوتها، فإنها لم تستطع أن تطفئ جذوة الإبداع أو أن تعقر حواس الكاتب وتجرده من قدرته على التعبير. بل على العكس، ظل الكاتب السجين وفيًا لغواية الكتابة، متشبثًا بها بوصفها ملاذًا أخيرًا ووسيلة للنجاة الرمزية. وفي أقصى لحظات العزلة والمطاردة، تحولت الكتابة إلى درع واقٍ يحمي الذات من الانكسار والهشاشة، ويمنحها القدرة على مقاومة الصمت القسري، واستعادة صوتها المسلوب.

لقد أفرزت التجربة السجنية أشكالًا تعبيرية متعددة، سعت إلى الغوص في الأعماق وكشف طبقات الألم المتراكمة، معتمدة على أنماط متنوعة مثل الرسائل، والقصائد الشعرية، والرسوم، والقصص، والمسرح، بل وحتى التعبير السينمائي. وهو ما أتاح لهذا الأدب أن يتخذ طابعًا متعدد الأجناس، ينفتح على الشهادات والمذكرات واليوميات والسرديات والمحكيات. وقد أفضى هذا التنوع المركب إلى جعل الكتابة السجنية عصية على التصنيف التقليدي، نظرًا لما تتسم به من تداخل وتعالق بين الأشكال التعبيرية المختلفة. كما أنها كسرت احتكار الأدباء المحترفين لفعل الكتابة، إذ اقتحم هذا المجال سياسيون وعسكريون، بل إن بعضهم استعان بكتاب وصحفيين لنقل تجربته، في خطوة تعكس إلحاح الحاجة إلى التعبير وتوثيق المعاناة (خفيفي، ص18).

وفي هذا السياق، يؤكد عبد اللطيف اللعبي—أحد أبرز الكتّاب الذين خاضوا تجربة السجن—أن قيمة هذه الكتابات لا تكمن في بعدها الجمالي أو رهاناتها الأسلوبية فحسب، بل في كونها شهادة حية على تجربة إنسانية قاسية، وتعبيرًا صادقًا عن منظومة القيم الإنسانية، وعن انتصار متجدد للإنسان في مواجهة القهر (العلام، 2018، ص58). ومن هذا المنطلق، يرى اللعبي أن هذه النصوص لا تغني المخيلة الأدبية فقط، بل تسهم أيضًا في تعميق معرفتنا بالواقع السجني، وتكشف عن قدرة الإنسان على الصمود والمقاومة، والتشبث بقيمه رغم كل محاولات السلب والمحو.

وعلاوة على ذلك، تمثل الكتابة عن السجون والاعتقال وسيلة أساسية لفضح الممارسات التعسفية والانتهاكات، ومحاولة جادة لمقاومة النسيان والتلاشي، خاصة في ظل ندرة الشهادات المستقلة التي توثق أوضاع السجون بعيدًا عن الرواية الرسمية للسلطات. فهي كتابة تقف في وجه التعتيم، وتعمل على استعادة الحقيقة وإبراز ما يُراد له أن يظل خفيًا.

وهكذا، سعى المعتقلون إلى نقل تجاربهم القاسية داخل الزنازين المعتمة، كما نقلوا معاناة غيرهم، إلى الفضاء العام عبر أعمال أدبية متعددة الأشكال. ومن خلال هذه الكتابات، وثّقوا شراسة القمع وأساليب التنكيل، وكشفوا عن حجم الانتهاكات التي تعرضت لها الذات الإنسانية، بما في

ذلك امتهان الكرامة ومصادرة الحرية، لتغدو نصوصهم وثائق إنسانية حية تقاوم النسيان، وتؤسس لذاكرة جماعية لا يمكن طمسها.

ثانياً: مسوغات الكتابة داخل السجن وبعد التحرر منه

ليست الكتابة مجرد وسيلة لنقل الواقع أو التعبير عنه، بل هي فعل تواصلي يتجاوز حدود الذات نحو الآخر، إذ تمثل "نداءً يتغيا التواصل مع المجال المختلف الذي تندرج داخله، وتكتسب مصداقيتها عندما تخرج من ذاتها لتمتد إلى الآخر بواسطة خطاب أو قضية أو رسالة" (أفاية، 2017، ص48). ومن هذا المنطلق، فإن كل كتابة تنبني على دوافع عميقة ومبررات متعددة، وتروم تحقيق غايات تتجاوز حدود التجربة الفردية. وفي سياق الكتابة السجنية، يبرز هذا البعد بوضوح أكبر، حيث يؤكد عبد اللطيف اللعبي أن السجين يكتب ليؤكد أولًا أنه لا يزال حيًا، وأن قدراته الذهنية لم تُصادر بالكامل، وكأن الكتابة تتحول إلى سباق وجودي ضد الموت، وضد النسيان، وضد العجز عن التعبير. إنها رسالة تُلقى في المجهول، موجهة إلى الإنسانية جمعاء، دون يقين بوصولها، لكنها تحمل في جوهرها رغبة عميقة في الشهادة والتاريخ (اللعبي، 1986).

وفي هذا التصور، تغدو الكتابة بمثابة عزاء وجودي يعوض السجين عن أسر الجسد وضيق الأفق، حيث تنفتح أمامه مساحة داخلية رحبة يتمكن من خلالها من بث أفكاره وأحاسيسه نحو العالم الخارجي. إنها محاولة لإبقاء الروح يقظة، وإرسال إشارات رمزية تؤكد استمرار المقاومة الفكرية، رغم الحصار المادي والمعنوي.

ولا تقف دوافع الكتابة عند هذا الحد، بل تتعدد لتشمل البحث عن منفذ نفسي للانعتاق من واقع قاسٍ، إذ يواصل العديد من السجناء خوض نضالاتهم داخل المعتقلات في سبيل انتزاع شروط إنسانية تحفظ كرامتهم. وفي ظل العزلة والصمت، تتحول الكتابة إلى وسيلة للتعبير عن الأشواق والحنين، وعن تفاصيل الحياة اليومية، بل وحتى عن مشاعر الغضب والاحتجاج تجاه السجان، الذي يسعى إلى قتل إنسانيتهم. وهكذا تصبح التجربة السجنية، رغم قسوتها، مصدر طاقة داخلية يستمد منها السجين القدرة على المواجهة والاستمرار (طالقاني، 2025، ص18).

ولا تنتهي معاناة السجين بخروجه من المعتقل، بل تستمر في أشكال أخرى أكثر تعقيدًا، مثل فقدان الإحساس بالانتماء، واضطراب الهوية، والشعور بالاغتراب عن الذات والعالم. فالاعتقال والتعذيب لا يهدفان فقط إلى انتزاع الاعترافات، بل يسعيان إلى تفكيك الإنسان من الداخل وتحويله إلى كائن خانع. وفي مواجهة هذا التفكك، تتحول الكتابة إلى فعل مقاومة جديد، وإلى وسيلة لإعادة ترميم الذات، وتذكير العالم بوجود معاناة إنسانية لا ينبغي تجاهلها.

ومن هذا المنظور، تكتسب الكتابة السجنية بعدًا علاجيًا، إذ تتيح للسجين التعبير عن مشاعر عميقة وحميمية يصعب تفكيكها أو الإفصاح عنها خارج النص. إنها شكل من أشكال التجاوز الداخلي، ومواجهة مباشرة لآلة السجن التي تسعى إلى تدمير الذات وتقليص أبعادها الإنسانية والاجتماعية. ومن خلال هذا الفعل، تعمل الكتابة على تفكيك الألم وإعادة تشكيله، بما يسمح بخلق نوع من التوازن الداخلي، بل وربما توليد إحساس خفي بالانتصار على القهر.

وتشكل الذاكرة بدورها عبئًا ثقيلًا يلازم السجناء، حيث تتحول التجارب المؤلمة إلى قيود نفسية جديدة لا يمكن التحرر منها إلا عبر الكتابة. وفي هذا السياق، يؤكد محمد الرايس أن الكتابة جاءت "من أجل العدالة"، لأن ما وقع داخل المعتقل لم يكن مجرد خرق للقوانين، بل كان انتهاكًا لإنسانية الإنسان في جوهرها (الرايس، 2000، ص4). وهكذا تصبح الكتابة فعل مساءلة أخلاقية، وسعيًا إلى إنصاف الضحايا واستعادة كرامتهم الرمزية.

كما يبرز دافع البوح بوصفه حاجة ملحة لدى السجين السابق، إذ يسعى إلى تفريغ تفاصيل التجربة ومقاومة النسيان، ورفض مصادرة صوته. ويعبّر فرج بيرقدار عن هذا التوتر بين اللغة والصمت، حين يرى أن الصمت قد يكون أكثر قسوة وخيانة من عجز اللغة نفسها (بيرقدار، 2006). ومن هنا، تغدو الكتابة ضرورة وجودية لا يمكن التنازل عنها.

بل إن الكتابة بعد السجن تتحول إلى واجب أخلاقي ومسؤولية تاريخية، إذ يشعر السجين السابق أنه مطالب بالشهادة على ما عاشه، لا من أجل ذاته فقط، بل وفاءً لرفاقه الذين قضوا داخل المعتقلات. ويعبّر محمد الرايس عن هذا الشعور بوضوح، حين يعتبر أن الامتناع عن الكتابة خيانة للضمير ولذكرى من رحلوا، وأن السرد هو السبيل الوحيد للتخلص من كوابيس الماضي واستعادة التوازن النفسي (الرايس، 2000، ص3).

ومع ذلك، فإن آثار السجن لا تزول بسهولة، بل تظل راسخة في وجدان السجين حتى بعد الإفراج عنه، حيث تستمر ندوب التجربة في تشكيل نظرته إلى العالم. وتكشف شهادة مليكة أوفقير عن عمق هذا الأثر، إذ تصف الخوف الملازم لها حتى بعد الحرية، والخشية الدائمة من عودة القمع، بما يعكس ترسخ التجربة في أعماق الذات بشكل يتجاوز حدود المنطق (أوفقير، 2007، ص128).

ومن هنا، تبدو الكتابة عن السجن فعلًا استثنائيًا، لا يهدف فقط إلى السرد، بل يسعى إلى خلق نوع من المشاركة الوجدانية مع القارئ، بحيث يصبح النص وسيلة لنقل الألم وإشراك الآخرين في معاناة السجناء. فهذه المشاركة تمثل إحدى الوظائف الأساسية للكتابة، إذ تسهم في كسر العزلة النفسية، وتفتح أفقًا للتعاطف الإنساني (شرف، 1998، ص84).

وحتى أولئك الذين حاولوا الابتعاد عن الكتابة أو رفضوا الخوض في تجربتهم، وجدوا أنفسهم في النهاية خاضعين لهاجس البوح. فقد عبّر عزيز بينبين عن رفضه الأولي للكتابة عن تجربة تازمامارت، إيمانًا منه بأن الصراحة شرط أساسي لهذا النوع من الكتابة، غير أن ثقل التجربة وعمقها دفعاه لاحقًا إلى التراجع عن موقفه وتوثيق معاناته (حزل، 2004). وهكذا يتبين أن الكتابة بالنسبة للسجين السابق ليست اختيارًا حرًا بالكامل، بل هي ضرورة ملحّة، وحمل ثقيل لا يمكن التخلص منه إلا بتحويله إلى نص.

ثالثًا: الكتابة السجنية بين الواقعي والتخييلي

تحتفي الكتابة الأدبية بالتخييل بوصفه جوهر العملية الإبداعية، فهي لا تتعامل مع الواقع باعتباره معطى جامدًا، بل باعتباره منبعًا يغذي الخيال ويوسّع أفقه. ومن هذا المنطلق، سلكت بعض الكتابات السجنية هذا المسار، حيث انخرطت ضمن ما يمكن تسميته بـ"السرد البيوغرافي السجني"، الذي يعمد إلى مزج التجربة المعيشة بعناصر تخييلية، في عملية معقدة لإعادة تشكيل الذاكرة واستحضار الوقائع. فهذه الكتابات لا تكتفي باسترجاع ما جرى داخل السجن، بل تحرر الذاكرة من أثر المكان المغلق وخدوشه، لتنفتح على الخارج، سواء عبر استعادة زمن ما قبل الاعتقال بكل تفاصيله المنسية، أو عبر استشراف زمن ما بعد السجن، حيث تصطدم الذات بعوالم جديدة قد تبدو غريبة أو زائفة، بل وقد تتشكل بعض ملامحها من داخل النص نفسه (العلام، 2018، ص58).

ويرى بعض النقاد أن الفاصل الزمني بين تجربة السجن ولحظة الكتابة عنها يطرح إشكالًا معرفيًا يتعلق بمدى دقة الوقائع المسترجعة، إذ قد يؤدي هذا الامتداد الزمني إلى حدوث خلل في استعادة الأحداث، نتيجة لتآكل الذاكرة أو إعادة تشكيلها وفق منظور لاحق. وبناء على ذلك، يميل أصحاب هذا الرأي إلى اعتبار أدب السجون تعبيرًا ذاتيًا أكثر منه موضوعيًا، إذ يخضع لتأثير العاطفة والانطباعات الشخصية، فضلًا عن تأثره بعوامل خارجية مثل شروط النشر ومتطلبات السوق الثقافية. كما أن الذاكرة نفسها قد تكون قد تعرضت لتشوهات نتيجة التعذيب والظروف القاسية، مما يجعل استرجاع التفاصيل الدقيقة أمرًا بالغ الصعوبة.

وعلى الرغم من ذلك، فإن أغلب هذه الكتابات صاغها معتقلون سعوا إلى تقاسم تجاربهم مع القراء، بعد أن أضفوا عليها أبعادًا بطولية، حيث احتلت الذات موقعًا مركزيًا في السرد، في مقابل تراجع نسبي لعناصر التخييل التي تعد من ركائز السرد الأدبي. ومع ذلك، فإن هذا الحضور الذاتي القوي لا يلغي تمامًا حضور التخييل، بل يعيد توجيهه ليخدم بناء التجربة وتكثيف دلالاتها.

وفي هذا السياق، يشير بعض النقاد إلى مفارقة لافتة، تتمثل في أن هذه النصوص—على الرغم من توظيفها للتخييل—لا تذهب بعيدًا في الكشف الكامل عن الحقيقة، وكأن الراوي يتردد في تجاوز حدود معينة، خوفًا من الاصطدام بالمحظور أو من تسمية الأشياء بأسمائها، خاصة فيما يتعلق بفظائع التعذيب والانتهاكات الجسيمة. وهو ما يجعل النص السجني يتحرك في منطقة حساسة بين الإفصاح والكتمان، بين الشهادة والحذر (منصوري، 2007–2008، ص39).

إن الرواية السجنية، بما هي حكاية الذات في علاقتها المتوترة مع السلطة، تميل بطبيعتها إلى تذويب الحدود الفاصلة بين الواقع والخيال، إلى درجة يصعب معها التمييز بينهما. فالواقع داخل السجن قد يبدو أكثر غرابة وقسوة من أي خيال، في حين يستمد الخيال قوته من هذا الواقع ليعيد إنتاجه في صورة أكثر كثافة وعمقًا. وهذا التداخل ليس وليد اللحظة، بل هو امتداد لتمثلات إنسانية قديمة، حيث ظل الإنسان دائمًا يعيش بين عالمين: عالم الواقع وعالم المتخيل، دون قدرة حاسمة على الفصل بينهما (يقطين).

ولعل هذا النمط من الكتابة السجنية لا يضاهيه من حيث غرابته وكثافته سوى أدب الخيال العلمي، وما يرتبط به من أعمال سينمائية، حيث تتجلى العلاقة المركبة بين الواقع والخيال في أقصى صورها. غير أن المفارقة تكمن في أن الواقع السجني، خاصة في بعض السياقات العربية، يفوق في قسوته وبشاعته ما يمكن أن يتخيله الأدب أو تصوره السينما. فالتجربة الواقعية كثيرًا ما تتجاوز حدود التخييل، وتفرض نفسها بوصفها حقيقة صادمة يصعب احتواؤها فنيًا (التومي، 2020، ص35).

ومع ذلك، فإن انخراط بعض هذه الأعمال في التخييل لا يعد انحرافًا عن الحقيقة، بل هو خيار فني يهدف إلى الحفاظ على البعد الإبداعي للنص الروائي، الذي لا يلتزم بنقل الواقع كما هو، بل يعيد تشكيله وفق رؤية جمالية خاصة. ومن هنا يمكن الحديث عن "الخيال الواقعي" أو "الواقع المتخيل"، حيث تتداخل العناصر الواقعية مع البنى التخييلية لتنتج نصًا قادرًا على التعبير عن جوهر التجربة، لا عن تفاصيلها فقط، وبذلك تحقق الكتابة السجنية توازنًا دقيقًا بين الشهادة والإبداع، بين التوثيق والتخييل.

رابعاً: افتكاك الاعتراف واسترجاع الهوية في الكتابة السجنية:

تفصح كتابات السجن عن ملمح جوهري من ملامح الواقع العربي، وتكشف بوضوح عن طبيعة السياسات التي تنتهجها السلطة في تعاملها مع الإنسان، حيث تحولت المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط الأطلسي إلى فضاء تتكثف فيه أشكال القمع والانتهاك، بما يجعلها من أكثر مناطق العالم مساسًا بكرامة الإنسان وحقوقه الأساسية (يوسف، 2017، ص35). وفي ظل هذا

السياق المشحون، لم يعد الحديث عن تجربة السجن موضوعًا هامشيًا، بل غدا تيمة مركزية تتكرر في مختلف الأجناس الأدبية، من الرواية إلى القصة والشعر والمسرح. وليس في ذلك ما يثير الدهشة، إذ إن الحرية—بوصفها القيمة الأكثر التصاقًا بوجود الإنسان—تظل في صميم كل تعبير أدبي، خاصة لدى من حُرم منها قسرًا.

وعليه، تتحول الكتابة عن تجربة السجن إلى مطلب ضمني يطرحه الكاتب/السجين، ليس فقط في مواجهة الجهاز القمعي الذي مارس عليه العنف، بل أيضًا في مواجهة مجتمع قد يكون صامتًا أو متواطئًا. فالكتابة هنا تسعى إلى انتزاع الاعتراف، باعتباره فعلًا مضادًا للإنكار والجحود، إذ يشير الاعتراف في بعض السياقات إلى الإقرار بالحقيقة ومواجهة ما تم طمسه أو تجاهله (أفاية، 2017، ص192). ومن ثم، تصبح الكتابة السجنية إعلانًا صريحًا عن الذات، واستعادة لهوية سعت آلة القمع إلى محوها، بدءًا من أبسط تجلياتها، كالاسم، حين يتحول السجين إلى رقم مجرد، يُختزل في رقم زنزانته أو ملفه داخل المؤسسة السجنية.

وبناءً على ذلك، تكتسب هذه الكتابات مشروعية وجودها بوصفها تمثيلًا لتجربة تاريخية كما عاشها صاحبها، من زاوية رؤيته الخاصة، كما تشكل في الوقت ذاته مساحة للدفاع عن النفس، وهو دفاع لم يكن ممكنًا في لحظة الاعتقال حيث كانت كل الأصوات مُصادرة (يوسف، 2017، ص27). وهكذا، تغدو الكتابة امتدادًا مؤجلًا لفعل المقاومة، وصوتًا متأخرًا لكنه ضروري.

فتتحول الكتابة ما بعد السجن إلى أداة لمقاومة النسيان، ومواجهة آلة القمع التي لم تكتف بسلب الحرية، بل سعت إلى تقويض إنسانية السجناء وتجريدهم من آدميتهم. وفي هذا السياق، يوضح ممدوح عدوان كيف أن القمع لا يقتصر على الضحية وحدها، بل يمتد ليشوه جلاده أيضًا، حين يدفعه إلى ممارسة العنف بصورة ممنهجة، بما يعمق النزعة "الحيوانية" في كلا الطرفين، ويؤدي في النهاية إلى انتكاسة المشروع الإنساني برمته (عدوان، 2007، ص58).

وإلى جانب وظيفتها في مقاومة النسيان، تسهم هذه الكتابات في استعادة الذات لهويتها المسلوبة، حيث يتحول فعل البوح إلى لحظة استرجاع للكينونة، وانتقال من موقع الضحية إلى موقع الفاعل. ويجسد فرج بيرقدار هذا التحول حين يستعيد اسمه وهويته الكاملة، رافضًا اختزال وجوده في رقم سجني، ومعلنًا ذاته بوصفه إنسانًا له تاريخ وعائلة وانتماء (بيرقدار، 2006، ص11). وهكذا، تصبح الكتابة فعل استعادة رمزية للذات، وانتصارًا على محاولات المحو.

كما تمثل هذه النصوص شكلًا من أشكال رد الاعتبار المعنوي، إذ تعمل على مساءلة السلطة ومحاسبتها رمزيًا، من خلال إعادة استحضار التجربة القاسية وتأملها من جديد. إنها عودة إرادية إلى "الجحيم"، ولكن هذه المرة من موقع الكاتب الذي يسعى إلى فهمه وتفكيكه وكتابته، في أفق التأثير في الحاضر واستشراف المستقبل (يوسف، 2017، ص28). وفي هذا الإطار، تؤكد

ميشال فيتوسي، التي ساهمت في نقل شهادة مليكة أوفقير، أن مثل هذه الكتابات ليست خيارًا عرضيًا، بل ضرورة داخلية ملحة، إذ يحمل السجين السابق رغبة عميقة في سرد تجربته، باعتبارها وسيلة للتخلص من آثار الماضي المؤلم (أوفقير، 2007، ص13).

غير أن هذه الشهادات لا تهدف فقط إلى فضح الانتهاكات بدافع الانتقام، بل تتجاوز ذلك لتسهم في منع تكرارها، من خلال تحويل التجربة الفردية إلى وعي جماعي. فهي ليست مجرد تسجيل لوقائع، بل فعل تغييري يسعى إلى زعزعة البنى التي أنتجت القمع. وفي هذا السياق، يؤكد نزار قباني أن الكتابة الحقيقية هي تلك التي تخلخل الوجدان وتحدث أثرًا عميقًا، وأنها بطبيعتها فعل انقلابي يستهدف إعادة تشكيل العالم والإنسان (قباني، 2000، ص15).

وعليه، فإن استراتيجية الفضح في الكتابة السجنية لا يمكن اعتبارها فعلًا بريئًا أو محايدًا، بل هي كتابة مناضلة، تنخرط في مواجهة فعل الإبادة الرمزية والمادية التي تعرض لها السجين. إنها كتابة تستعيد الصوت المسلوب، وتعيد تشكيل الذاكرة، وتؤسس لمعنى جديد للوجود، حيث يتحول الألم إلى خطاب، والمعاناة إلى فعل مقاومة، والذاكرة إلى سلاح في وجه النسيان.

الخاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى أن الكتابة السجنية ليست مجرد تسجيل لتجربة قاسية، بل هي فعل وجودي يعيد من خلاله السجين تشكيل ذاته واستعادة إنسانيته. فقد تبيّن أن النص السجني يشكل فضاءً للمقاومة الرمزية، حيث تتحول اللغة إلى أداة لمواجهة القمع، وإعادة بناء الهوية التي سعت المؤسسة السجنية إلى محوها.

كما كشفت الدراسة أن العلاقة بين الذاكرة والكتابة علاقة مركبة، إذ لا تنقل التجربة كما هي، بل تعيد تشكيلها وفق منظور ذاتي وزمني، مما يطرح إشكالية الصدق والحقيقة في هذا النوع من الأدب. ومع ذلك، فإن هذه الكتابات تظل وثائق إنسانية ذات قيمة عالية، لما تحمله من شهادات حية على واقع مغيّب.

وفي ضوء ذلك، يمكن القول إن الكتابة عن السجن تمثل أفقًا مزدوجًا: فهي من جهة وسيلة لإثبات الهوية، ومن جهة أخرى فعل تمرد على كل أشكال مصادرة الإنسانية، مما يمنحها مكانة خاصة داخل الحقل الأدبي والإنساني.

نتائج الدراسة:

- اضطلع المعتقلون بنقل تجاربهم وتجارب غيرهم وراء الأسوار، فصاغوا نصوصًا متماسكة تعالت على الألم ورتابة الانتظار داخل فضاء ضيق يتسم بالقيد والاستلاب.

- اتخذ الكُتّاب من السجن منطلقًا لحكي وقائع المعاناة والقهر، وتصوير صمود الذات في مواجهة عنف السجان، لتغدو الكتابة فعل مقاومة وبوحًا تطهيريًا يخفف من وطأة الماضي.
- تكتسب هذه الكتابات أهمية خاصة لارتكازها على أحداث واقعية وشخصيات وأمكنة وأزمنة حقيقية، مما يجعلها مادة قابلة للاستثمار في كتابة تاريخ متعدد الزوايا للتجربة السجنية.
- شكلت كتابات السجن انتصارًا معنويًا لأصحابها واستعادةً لهوية سعت آلة القمع إلى محوها، كما أتاحت للقارئ التقاط صوت احتجاج صامت عبر الكتابة بوصفها وسيلة لتضميد الجراح.
- أثبتت الكتابة السجنية قدرتها على إعادة بناء الهوية الفردية في مواجهة الطمس والإلغاء.
- مثلت النصوص السجنية فضاءً للتفريغ النفسي والتطهير الذاتي، مما يخفف من قسوة التجربة.
- تؤدي الذاكرة دورًا انتقائيًا في تشكيل النص، فتُعاد صياغة الأحداث بدل نقلها حرفيًا.
- يتداخل الواقع والتخييل في الكتابة السجنية، بما يمنحها بعدًا أدبيًا يتجاوز التوثيق المباشر.
- تمثل الكتابة داخل السجن شكلًا من أشكال المقاومة الرمزية في مواجهة السلطة والقمع.
- تكشف هذه الكتابات عن أبعاد اجتماعية وسياسية تتجاوز الفردي إلى الجماعي.
- لا تزال الدراسات النقدية حول الأدب السجني محدودة، مما يستدعي مزيدًا من البحث والتأصيل.

توصيات الدراسة:

- ضرورة توسيع الاهتمام الأكاديمي بالأدب السجني وإدراجه ضمن المناهج الأدبية والنقدية.
- تشجيع جمع وتوثيق الشهادات السجنية باعتبارها مصادر تاريخية وإنسانية مهمة.
- اعتماد مقاربات متعددة التخصصات (نفسية، اجتماعية، أدبية) لتحليل هذا النوع من الكتابة.
- دعم ترجمة الأعمال السجنية إلى لغات أخرى لإيصال صوت السجناء إلى العالم.
- تعزيز الوعي المجتمعي بقضايا السجناء وحقوق الإنسان من خلال الدراسات والأعمال الأدبية.

قائمة المصادر والمراجع:

- أفاية، محمد نور الدين. (2017). الوعي بالاعتراف (ط. 1). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- أوفقير، مليكة. (2007). الغريبة (ط. 1). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- بيرقدار، فرج. (2006). خيانات اللغة والصمت (ط. 1). بيروت: دار جرير.
- التومي، محمد. (2020). أدب السجون في تونس ما بعد الثورة (ط. 1). تونس: كلمة للنشر.
- حزل، عبد الرحيم. (2004). سنوات الجمر والرصاص: نصوص وحوارات في الكتابة والسجن (ط. 1). الرباط: جذور للنشر.

- حمدونة، رأفت خليل. (2018). الجوانب الإبداعية في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية الأسيرة (ط. 1). فلسطين: سلسلة إصدارات وزارة الإعلام.
- خفيفي، محمد. (بلا تاريخ). الحكي الجريح: قراءات في أدب الاعتقال السياسي بالمغرب (ط. 1). المغرب.
- الرايس، محمد. (2000). من الصخيرات إلى تازمامارت: تذكرة ذهاب وإياب إلى الجحيم (ترجمة عبد الحميد الجماهيري، ط. 1). الدار البيضاء: دار النشر المغربية.
- شرف، عبد العزيز. (1998). أدب السيرة الذاتية. القاهرة: مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع.
- طالقاني، شريعة. (2025). أدب السجون السوري (ط. 1). بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- عدوان، ممدوح. (2007). حيونة الإنسان (ط. 1). الإمارات: دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع.
- العلام، عبد الرحيم. (2018). الكتابة السجنية: إبداعات وراء الأسوار. مجلة زمان.
- قباني، نزار. (2000). الكتابة عمل انقلابي (ط. 5). بيروت: منشورات نزار قباني.
- اللعبي، عبد اللطيف. (1986). حرقة الأسئلة (ط. 1). الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- منصوري، علي. (2007–2008). البطل السجين السياسي في الرواية العربية (أطروحة دكتوراه). جامعة باتنة.
- يقطين، سعيد. (2017، 31 يناير). رواية الخيال العلمي. جريدة القدس العربي.
- يوسف، شعبان. (2017). أدب السجون (ط. 1). الدار البيضاء: الهيئة المصرية للكتاب.